الديناميّات الديموغرافيّة لمسيحيّي المشرق[1]

د. شوقي عطيه[2]

تتأثر ديموغرافية الشعوب بثلاثة عوامل أساسية تعرف بمركبات النمو. هذه العوامل هي: الولادات (الخصوبة) والوفيات والهجرة. أي تغيّر، بأي عامل من العوامل الثلاثة، يؤدي إلى ديناميّة ديموغرافية قد توصل إلى زيادة أو نقصان عدد السكان. إلا أن الزيادة والنقصان، وهما ما يظهران للعيان، لا يشكّلان كل الدينامية الديموغرافية. فنحن نضيف لعدد السكان، بُناهم الديموغرافية لناحية العمر والجنس أساساً.

الولادة والوفاة ظاهرتان بيولوجيتان طبيعيتان، الخصوبة ظاهرة ثقافية وبيولوجية أما الهجرة فظاهرة مركبة تؤثر فيها العوامل البشرية الصنع، إما هرباً من مكان إقامتهم، أو بحثاً عن مكان إقامة أفضل. وهذه الظاهرة وإن مصطنعة، فهي قديمة بقِدم البشر أنفسهم. هذا في المبدأ، إلا أن الواقع أكثر تعقيداً من هذا. فالخصوبة والوفاة والهجرة كلها تتأثر بعدد كبير من العوامل المتداخلة التي تؤثر بها مباشرة. وعليه، نرى أن جماعات إنسانية أكثر خصوبة من الأخرى (الخصوبة التفاضلية) وأن جماعات أكثر عرضة للموت من أخرى. من الطبيعي أن الموت حتمي، إلا أن ما يهمنا هنا هو عدد السنوات المعاشة والتي يعبّر عنها بتوقّع الحياة عند الولادة (أو أمل الحياة عند الولادة). أما الهجرة، فهي تكثر عند الجماعات غير المستقرة. وعدم الاستقرار ينتج عن وضعها الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي، بالإضافة إلى ما قد يهدّد استقرار جميع البشر كالعوامل الطبيعية مثلاً.

بعد كل ما تقدم، ندرك أن أي حجم لأي جماعة بشرية مرتبط بالعوامل الثلاثة الأساسية في الديموغرافيا: فزيادة الخصوبة وتراجع الوفيات وانخفاض حجم الهجرة المغادِرة تؤدي إلى زيادة عددها، والعكس صحيح. تؤثر الثقافة بشكل مباشر على العوامل الديموغرافية، والثقافة بدورها تتأثر بالاجتماع والاقتصاد والسياسة. عليه، فإن تكاتف هذه العوامل مع بعضها بعضاً سيخلق ديناميّة ديموغرافية متمايزة بتمايز الثقافة. وبما أن

---

[1]. مؤتمر مستقبل الحضور المسيحي في المشرق، العطشانة – بكفيا، 05-11-2022

[2]. أستاذ الديموغرافيا في معهد العلوم الاجتماعية – الجامعة اللبنانية ورئيس مختبر الديموغرافيا في مركز أبحاث المعهد.
Chattieh@ul.edu.lb

الاجتماع البشري يتألف من جماعات فرعية تزداد خصوصية كلما تباعدت ثقافياً عن بعضها بعضاً، نرى عندها تمايزاً ديموغرافياً يتراوح بين غير المرئي إلى الواضح بالمشاهدة العيانيّة فحسب. ما أقوله ليس بجديد على أحد، فالتمايز الديموغرافي واضح في مجتمعاتنا، إلا أن سبب هذا التمايز، أو فهمنا له، يقع ضمن خانة التنميط والخطأ الشائع. وإذا أردنا أن نعبر عن هذا التنميط بعبارات بسيطة نقول أن: المسلمين أكثر خصوبة من المسيحيين. في الملاحظة البسيطة، هذه الفرضية صحيحة. إلا أن التعمّق فيها يوصلنا إلى نتائج أكثر تعقيداً. المسلمون أكثر خصوبة بسبب تراكمات ثقافية خلال القرن الأخير اختلفت عن تلك التي حصلت عند المسيحيين. وهنا أعود إلى ما قلت عما تفعله الثقافة في الديموغرافيا، لأزيد: الدين ما هو إلا أحد المكوّنات الثقافية. وعندما نضيف التعليم والعمل والسياسة إلى الدين، وكل ما ينتج عنها من تغيرات ثقافية خاصة تدخل وتؤثّر على الثقافة الأساسية للجماعات، نكون هنا أمام خصوصيات ديموغرافية تختلف بين جماعة وأخرى.

هكذا، فإن سبب التمايز الديموغرافي بين دين وآخر داخل المشرق، وبين طائفة وأخرى داخل الدين الواحد ما هو إلا التراكمات الثقافية التي خضعت لها كل جماعة، إثنية كانت أو طائفية. ومع تراكم المتغيرات التي أثّرت على الواقع المعاش، وبالتالي على الثقافة، لكل جماعة من الجماعات لا بد أن تتغير المخرجات الديموغرافية لهذه الجماعة. وبما أن مسيحيي المشرق كانوا الأكثر تعرّضاً للتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ظهرت النتيجة بديناميّات ديموغرافية واضحة.

تسعى هذه الورقة البحثية إلى وصف واقع التحولات الديموغرافية التي ظهرت عند مسيحيي المشرق وربطها في سياق تاريخي بجملة المتغيرات التي تعرضوا لها منذ اتفاقية سايكس – بيكو؛ الاتفاقية التي رسمت المنطقة بحدودها المصطنعة، ولغاية اليوم. وللقيام بذلك سنستخدم المنهج التاريخي بالأسلوب الوصفي، بالإضافة إلى التحليل الديموغرافي لأبرز التحولات التي خضع لها مسيحيو المشرق، أي الأردن وفلسطين والعراق وسورية ولبنان، مع التركيز خاصة على ما حصل ويحصل في الدول الثلاث الأخيرة. والتقنية الأساسية التي سنعتمدها هي تحليل المعطيات الثانوية من دراسات إحصائية أو ديموغرافية تاريخية. كما سنعتمد على تحليل المعطيات الأولية في حالة لبنان من خلال تحليل معطيات لوائح الشطب (الناخبين) العائدة إلى انتخابات 2022 النيابية.

لا بد هنا إلا أن نشير إلى الصعوبة التاريخية في هذا النوع من الدراسات التي تعتمد على تحليل المصادر الثانوية للمعطيات، بسبب غياب المصادر الرئيسة، أو ندرتها في أفضل الأحوال. فالدراسات الديموغرافية،

المتفاوتة الجودة متوفرة، إلا أن الدراسات التي تتخصص في العلاقة بين الدين أو الإثنية والديموغرافيا غير متوفرة. وهذا ما يدفعنا إلى الاعتماد على ما يمكن أن نحصل عليه من معطيات، حتى لو لم تكن دقيقة بما لا يقبل الشك. أشار يوسف كرباج (Courbage, 1999) إلى هذه المشكلة منذ أكثر من عشرين عاماً، والوضع ما زال على حاله.

1- ديموغرافيا المشرق خلال قرن

قبل قرن وبضع سنوات خلت، لم يكن تقسيم سكان المشرق على ما هو عليه اليوم. ولم تكن بعض دوله قد نشأت على ما نعرفه بعد. كان سكان المشرق أقل بكثير مما هم عليه اليوم. إلا أن بناهم الأساسية لناحية التكوين الطائفي والإثني تكاد تكون كما كانت عليه، أقلّه لناحية عدد المكونات لا حجمها أو نسبتها مقارنة بغيرها.

يعتبر الوصول إلى أعداد السكان عند بداية الاستعمار (الانتداب) الفرنسي- الانكليزي، أي في بداية عشرينيات القرن العشرين، من المهام السهلة. لقد قامت كل من بريطانيا وفرنسا بتعدادات شاملة للدول التي انتدبت عليها كإجراء طبيعي يقوم به أي مستعمر على المقاطعات التي سيبسط نفوذه عليها. ذلك أن معرفة عدد السكان من ضروريات السيطرة. إلا أن الواقع أن بريطانيا وفرنسا لم تكونا تهتمان فقط بمعرفة عدد سكان كل دولة، لا بل سعت كل منهما، من خلال التعداد، إلى تبيان التوزيع الطائفي والإثني لكل دولة من الدول. وليس سراً إن قلنا أن كل منهما كانت تعرف معظم الواقع منذ عقود خلت. ففرنسا مثلاً قامت، من خلال قنصلياتها أو بعثاتها المختلفة، بعدد كبير من الإحصاءات المتفاوتة الدقة في لبنان تبينت من خلالها نسب توزيع الطوائف المختلفة فيه. (عطيه، 2014)

هكذا، ما أن بدأت بريطانيا وفرنسا تطبّق قرارات الانتداب على الدول الخمس، حتى كانت نتائج التعدادات قد صدرت ونُشرت[3].

بلغ عدد سكان المشرق في حينها ما يقارب الـ 6 ملايين نسمة، وكان سكان لواء الاسكندرون من ضمن هذا العدد قبل أن يتم سلخه عن سورية بعد عقد من الزمن. (جدول 1)

[3]. يشكك الكثيرون في صحة التعدادات الأولى لعدد من الأسباب، منها عدم شمولها على الجميع إما سهواً أو عمداً (هذا العمد أتى من المنظمين ومن المعدودين) بالإضافة إلى تعمد الدولتين العظميين إلى زيادة نسبة مكون سكاني على آخر لأسباب ستتضح في ما بعد.

جدول 1: توزع سكان دول المشرق على الديانات الأساسية مع بداية تطبيق الانتداب

الدولة / الطائفة	الأردن [1]	سورية [2]	لبنان [3]	العراق [4]	فلسطين [5]	المجموع	النسبة
المسلمون	229000	1278600	273291	2635000	591046	5006937	84.07%
المسيحيون	18000	167662	323268	80000	73024	661954	11.12%
اليهود	0	12642	0	88000	83794	184436	3.10%
مختلف	3000	0	8436	30000	9318	0	%0.8
"أجانب"[4]	0	51316	0	0	0	51316	0.86%
المجموع	250000	1510220	604995	2833000	757182	5955397	100.00%
النسبة	4.20%	25.36%	10.16%	47.57%	12.71%	100.00%	

1- (الشاعر، 2004، صفحة 70)

2- (Augustin, 1924, p. 74)

3- (Jaulin, 2009, p. 195)

4- (Weulersse, 1934, pp. 73-74)

5- (Augustin, 1924, p. 78)

في ما يتعلق بتوزيع السكان بين الأديان، بلغت نسبة المسيحيين في المشرق ما يقارب الـ 11.12%، حيث كانت أعلى نسبة للمسيحيين في دولة لبنان الكبير، إذ كانوا يشكلون أكثرية السكان بنسبة بلغت 53.4% وكان معظم المسيحيين اللبنانيين من الموارنة. والدولة الثانية لناحية نسبة المسيحيين كانت سورية حيث ناهزت نسبتهم 13%، وكانت النسبة الأكبر للمسيحيين تعود للروم الأرثوذكس فيها.

[4]. المقصود بالأجانب هم المواطنون لبلدان أجنبية، غالباً أوروبيّة، لم يدخلوا في التعدادات بهوياتهم الطائفية.

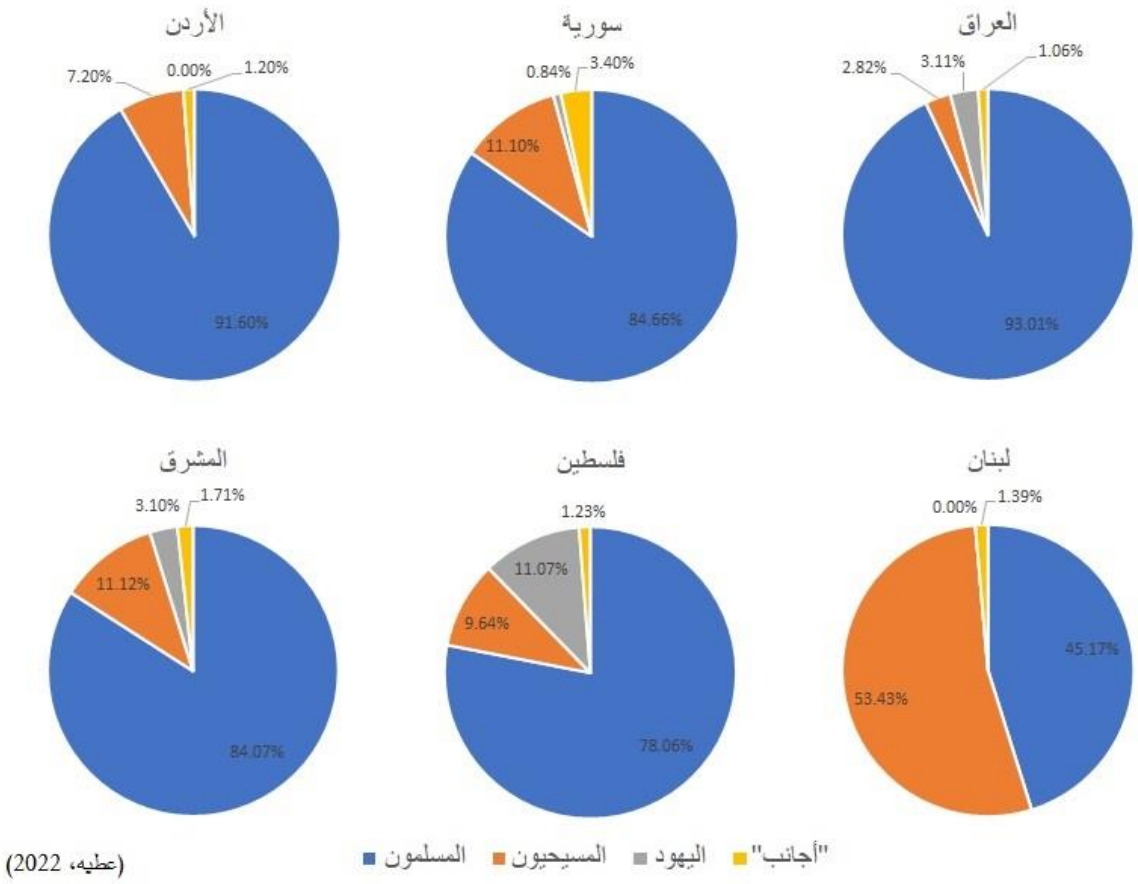

رسم بياني 1: توزع سكان المشرق على دوله حسب الأديان من المجموع، 1920–1922[5]

بدأت نسبة المسيحيين تتراجع مقارنة بباقي الأديان والطوائف، إن كان في المشرق أو في دوله، ابتداءً من ذلك التاريخ. لم يمنع تراجع هذه النسبة بعض الديناميّات الديموغرافية التي طرأت على بعض دول المشرق، وخاصة الهجرة الوافدة للأرمن في عشرينيات القرن العشرين. فقد بلغ عدد المهاجرين الأرمن إلى سورية ولبنان أكثر من 150 ألف نسمة، وذلك منذ عام 1914 إلى عام 1927، علماً أن الأعداد الكبرى دخلت البلاد في بداية العشرينيات. غادر من هؤلاء حوالي 30 ألفاً إلى فرنسا والولايات المتحدة وغيرها، وبقي منهم حوالي 120 ألف فرد. (Augustin, 1924, pp. 73-74) لن نتحدث هنا عن هجرة الأشوريين والسريان لأنها كانت ضمن دول المشرق، وخاصة من العراق إلى سورية ولبنان، بحيث لن تحدث أي إضافة إلى نسبة مسيحيي المشرق؛ لا بل على العكس فقد هاجرت نسبة لا بأس بها إلى خارج العراق باتجاه الغرب، وخاصة الولايات المتحدة الأميركية التي هي من أبرز الدول التي يقصدها أشوريو العراق لليوم. (Hughes, 2017, p. 49)

[5]. المصادر نفسها من الجدول. الرسم للباحث.

تضاعف عدد السكان في المشرق خلال قرن من الزمن إلى أن أصبح اليوم يزيد عن 85 مليون نسمة، أي ما يشكل نسبة نمو سنوي بمقدار 2.7% وهي من الأعلى في العالم[6]. إلا أن نسب النمو تتفاوت بين المسيحيين والمسلمين، إذ كانت 1.57% سنوياً للمسيحيين و2.84% للمسلمين[7]. يفسّر هذا التفاوت الكبير في نسب النمو لأديان سكان المشرق خلال قرن من الزمن، انخفاض نسبة المسيحيين التي تدنّت من 11.1% عام 1922 إلى 3.6% حالياً. (جدول 2)

جدول 2: توزع سكان دول المشرق حسب الدين، 2022

	عدد السكان	نسبة المسلمين	نسبة المسيحيين	عدد المسلمين	عدد المسيحيين
سورية	18250000	96.3	3.7	17574750	675250
لبنان	4840000	67.6	32.4	3271840	1568160
لاجئين سوريين في لبنان	1500000	92	8	1380000	120000
فلسطين	7252816	99	1	7180288	72528
الأردن	11271778	97.5	2.5	10989984	281794
العراق	42248900	99	%0.64	41826411	260000
المشرق	**85363494**	**96.32%**	**3.62%**	**82223272**	**2977732**

تنفيذ الجدول وحساب أرقامه[8]: (عطيه، 2022)

المصادر:

سورية: (ARDA, 2020) – (UNHCR, 2019) – (US Department of State, 2020)

لبنان: (CAS, 2020, p. 2019) – (US Department of State, 2019)

فلسطين: – (Minority Rights Group International, 2022)

العراق: (مديرية احصاءات السكان والقوى العاملة، 2020، صفحة 11) – (Dumont & –(Index Mundi, 2022)

[6]. أي أن عدد السكان يزداد بمقدار 2.7% سنوياً منذ 1922 ولغاية اليوم.

[7]. تتأثر نسبة النمو السكاني السنوي بمركبات النمو الثلاثة (ولادات – وفيات – هجرة) وهو ما سنتوسع فيه لاحقاً.

[8]. تعددت مصادر الأرقام التي تكوّن منها هذا الجدول، كما هو واضح في لائحة المصادر الخاصة به. نشير هنا إلى الأمور الأساسية التالية:

- تعاني الأرقام الديموغرافية في جميع دول المشرق من فقدان المصداقية والشفافية، وخاصة عندما تصدر عن الجهات الرسمية المخوّلة بذلك، حتى أن في الكثير من الأحيان نفضل الاستعانة بأرقام مكاتب الإحصاء الأجنبية. حتى الأردن مثلاً، وهو الأكثر دقة في هذا المجال، يشير إلى أن نسبة المسيحيين فيه هي 8%: قد يكون هذا الأمر صحيحاً قبل الأزمة السورية. إلا أنه بعيد كل البعد عن الصحة اليوم. الأمر نفسه بالنسبة للبنان حيث تصنّف بعد المصادر بأن نسبة المسيحيين 33% أو 35% أو 39%. حتى أن الدولية للمعلومات نشرت دراسة عام 2018 تبين أن عدد سكان لبنان بلغ 5.5 مليون وأن 30% منهم مسيحيون، لم أعتمد على هذه الأرقام بسبب التفاوت الكبير (0.7 مليون نسمة) بين الدولية للمعلومات وإدارة الإحصاء المركزي، حيث من الممكن أن الدولية للمعلومات قامت بحساب السوريين والفلسطينيين في المخيمات؟
- كان الوصول إلى عدد تقريبي لمسيحيي العراق هو الأكثر صعوبة، فالتقديرات تشير إلى أن عدد المسحيين في العراق يتراوح بين 200 و350 ألفاً على عدد سكان 40 مليون نسمة في عام 2020. فكل مركز أبحاث يقدم رقماً. عليه اعتمدنا على رقم وسطي هو 266 ألفاً وقمنا بإعادة اسقاطه على عدد السكان المتوقع لعام 2022 وهو 42 مليون نسمة.

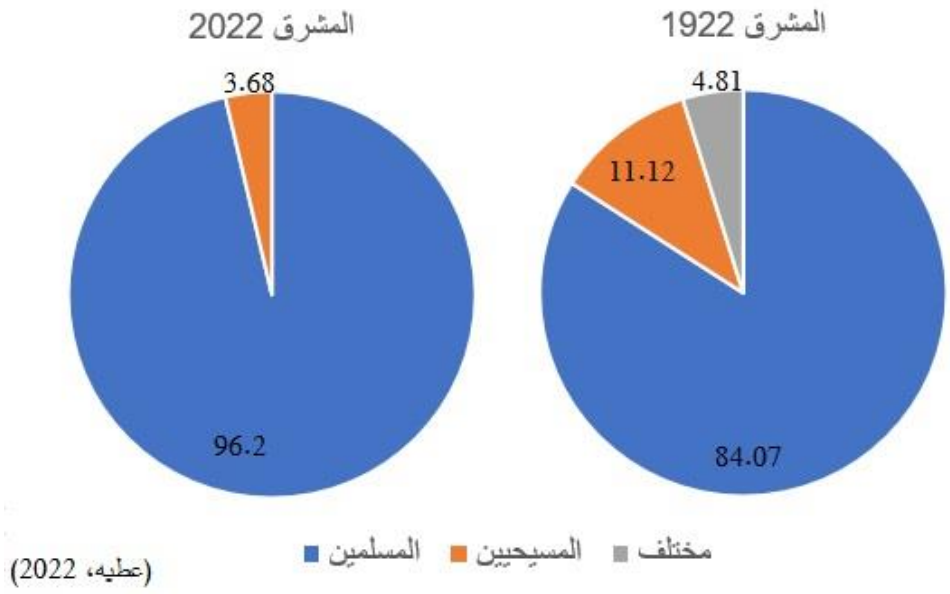

رسم بياني 2: نسب المسيحيين في المشرق بين 1922 و2022

في الحقيقة، إن النسبة 3.8% تعبّر عن أعلى رقم ممكن للمسيحيين في المشرق. فبعد اطلاعنا على عدد كبير من المصادر أخذنا الأرقام الأعلى والتي هي الأقرب إلى الواقعية والموضوعية. ذلك أن أعداد المسيحيين في العراق تراوحت مثلاً، وحسب المصادر، بين الـ250 و350 ألفاً لعدد سكان بلغ 40 مليون عام 2020 ونسبة 1% من مجموع السكان في العام نفسه في مصادر أخرى.

لا يعود تراجع نسبة المسيحيين في المشرق إلى سبب واحد دون غيره، بل يأتي نتيجة تضامن عدة عوامل. فتراجع النسبة لا يعني تراجع العدد، بل على العكس فقد ارتفع عدد المسيحيين من 662 ألفاً إلى 3.14 مليون نسمة. إلا أن نسبة النمو المنخفضة مقابل النسبة المرتفعة عند المسلمين ستنعكس مع الوقت انخفاضاً في نسب المسيحيين. السبب الأول في هذا الاختلاف بين نسبتي النمو يعود إلى ارتفاع خصوبة المسلمين تاريخياً عن خصوبة المسيحيين. إلا أن الخصوبة التفاضلية هذه ليست السبب الوحيد، بل تأتي عوامل أخرى لتزيد الهوة بين نسبتي النمو المذكورتين. ومن أبرز العوامل، بالإضافة إلى الخصوبة، نذكر: الهجرة، كعامل مباشر، والتعمّر كعامل غير مباشر.

- بعد مقارنة عدة مواقع ومصادر علمية في ما يتعلق بنسبة المسيحيين اعتمدنا على هذه النسب التي هي الأقرب إلى الواقع.
- قمنا بحساب عدد المسيحيين والمسلمين نسبة لعدد السكان الرسمي (من الدوائر الرسمية) في كل دولة، وبعدها حسبنا نسبة المسيحيين في المشرق.

سنتطرق هنا إلى أبرز العوامل التي أدّت إلى تفاوت في نمو المسيحيين والمسلمين في ثلاث من دول المشرق وهي لبنان وسورية والعراق وذلك للأسباب التالية:

- تحتوي هذه الدول على أكبر عدد من المسيحيين.
- قامت هذه الدول تاريخياً بتعداد السكان على أساس طائفي.
- تعاني هذه الدول، حالياً، من مشاكل مركبة ذات طابع طائفي أو إثني– طائفي.
- عانى المسيحيون في هذه الدول من أزمات دفعتهم إلى الهجرة الجماعية إلى الخارج.

وفي العودة لمسألة عدم دقة التعدادات، وخاصة تلك المتعلقة بتوزع السكان على المكونات الدينية والعرقية، يمكننا عرض تحليل للبيانات الأولية من لبنان، وذلك من خلال استخدام المعطيات الخاصة بالانتخابات أو ما يُعرف بلوائح الشطب. تُعتبر هذه اللوائح المصدر الوحيد المتاح أمام الباحثين لمعرفة واقع الطوائف في لبنان، إلا أن استخدامها محدود وذلك لأنها لا تعرض مجمل السكان، بل تكتفي بعرض من أتمّ سن الاقتراع أي الحادية والعشرين من العمر، أي أنها مقتصرة على ما نسبته 65% من مجموع السكان المقدّر عام 2020 (CAS، 2020، صفحة 25). أضف إلى ذلك، ما يمكن أن يشوب هذه اللوائح من أخطاء كالتسجيل المزدوج أو تسجيل المغتربين وغيرها. ومع ذلك، يقوم الباحث في المجال الديموغرافي بالاعتماد على ما يتوفر لديه من معطيات. توضّح لنا هذه المعطيات أن نسبة المسيحيين تقرب الـ 34.5% من مجموع الناخبين المسجلين. وقد توزعت هذه النسبة على الطوائف اللبنانية حيث كانت أعلى نسبة للموارنة الذين يشكلون 19.3% من الناخبين اللبنانيين و56% من الناخبين المسيحيين في لبنان. نلاحظ الانخفاض الواضح في نسب المسيحيين لمجموع الناخبين عما كانوا عليه في عام 2005، إذ كانت نسبة الناخبين المسيحيين تقارب الـ 40% لتصبح 34.5% عام 2022. (جدول 3)

جدول 3: توزع الناخبين على الطوائف، 2005 و2022، لبنان[9]

الطائفة	2005		2022		النمو السنوي%
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	
سنة	801685	26.6909%	1170861	29.5113%	2.25
شيعة	793018	26.4023%	1163257	29.3196%	2.28
دروز	169829	5.6542%	221801	5.5904%	1.58
علويون	23804	0.7925%	39052	0.9843%	2.95
المسلمون	**1788336**	**59.5400%**	**2594971**	**65.4056%**	**2.21**
موارنة	670566	22.3255%	766271	19.3137%	0.79
روم ارثوذكس	237307	7.9008%	263795	6.6489%	0.62
روم كاثوليك	157285	5.2366%	171141	4.3136%	0.5
ارمن ارثوذكس	90810	3.0234%	84027	2.1179%	−0.46
ارمن كاثوليك	20215	0.6730%	19979	0.5036%	−0.07
انجيليون	17443	0.5807%	17433	0.4394%	
سريان ارثوذكس			16198	0.4083%	
سريان كاثوليك			12934	0.3260%	
لاتين			10952	0.2760%	
كلدان			3461	0.0872%	
اشوريون			1746	0.0440%	
مختلف	15929	0.5303%	107	0.0027%	
أقباط ارثوذكس		0.0000%	29	0.0007%	
المسيحيون	**1209555**	**40.2703%**	**1368073**	**34.4819%**	**0.73**
اسرائيليون	5698	0.1897%	4443	0.1120%	
لا دينيون		0.0000%	18	0.0005%	
	3003589	100.0000%	3967505	100.0000%	

[9]. مصدر هذه المعطيات: لوائح الشطب، وزارة الداخلية

من الواضح أن الطوائف اللبنانية لا تنمو سكانياً بالتساوي، فالطوائف المسلمة أسرع نمواً من الطوائف المسيحية، إذ أن عدد الناخبين المسلمين سجّل نمواً قدره 2.21% سنوياً في مقابل 0.73% للطوائف المسيحية. (رسم 3)

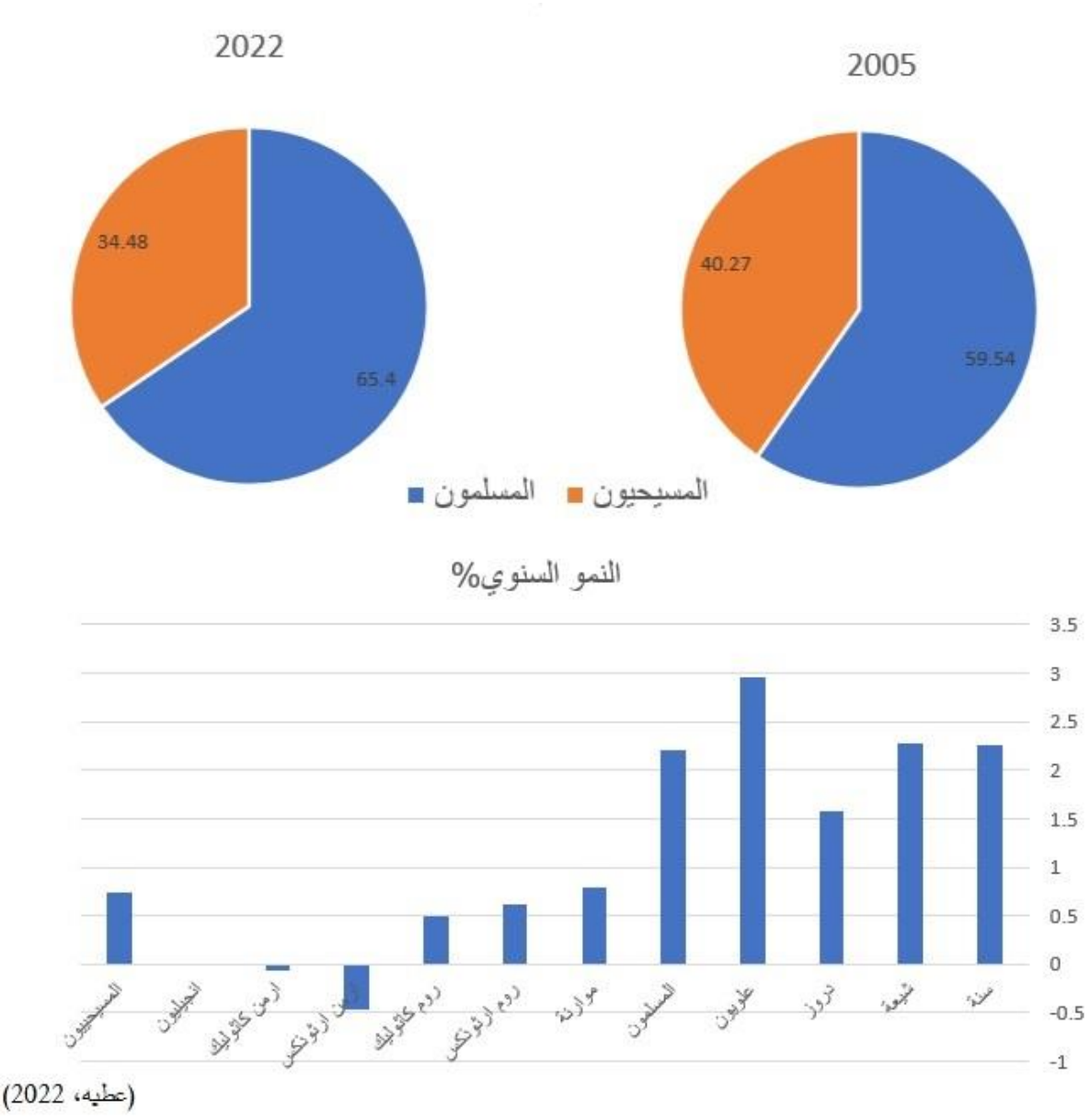

(عطيه، 2022)

رسم بياني 3: نسب الناخبين بين المسيحين والمسلمين ونسبة نمو عدد الناخبين عند الطوائف، لبنان 2005–2022

كما نشير إلى أن عدداً من الطوائف اللبنانية قد سجّلت نمواً سلبياً في عدد ناخبيها، حيث كان النمو عند الأرمن الأرثوذكس –0.46% وعند الأرمن الكاثوليك –0.07%.

يكفي لتبيان الاختلافات بين نسب النمو عند الطوائف أن نعرض نسبة الذين يدخلون سنوياً إلى لوائح الشطب عند المسيحيين والمسلمين. وللقيام بذلك اعتمدنا على الفئات الأصغر سناً ضمن الناخبين، أي مواليد 1990 إلى 2000، لأنهم الأقل عرضة للوفاة بالإضافة إلى كونهم يتعرضون للاحتمالات نفسها في ما يتعلق بالهجرة. وعليه، نجد أن كل سنة من هذه السنوات يدخل ما متوسطه 78969 ناخباً جديداً إلى لوائح الشطب. (رسم 4)

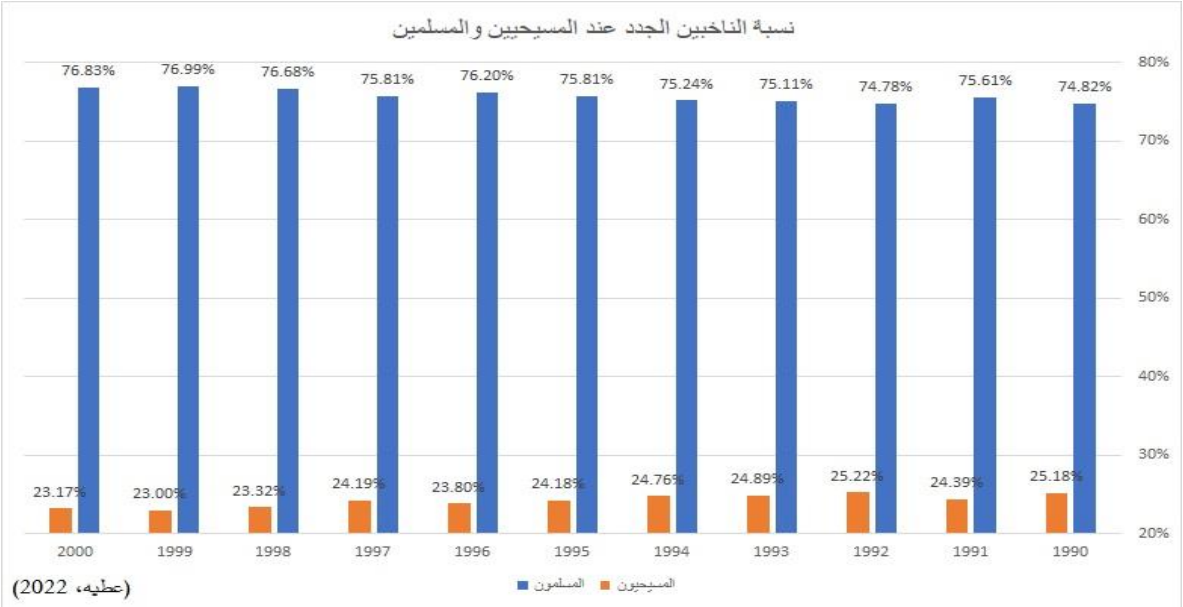

رسم بياني 4: توزع الناخبين الجدد حسب الدين، لبنان، 1990–2000

كما هو واضح في الرسم 4 أعلاه، فإن الناخبين المسيحيين الجدد لا يتعدّون الـ25% من مجموع الناخبين الجدد؛ لا بل إن هذه النسبة تتناقص سنة بعد سنة لتصل إلى 23% في العام 2000.

يدل تحليل لوائح الشطب على أن نسبة المسيحيين في لبنان مقبلة على المزيد من التناقص مع مرور الزمن، وهذا يعود إلى عدد من العوامل. معظم هذه العوامل مشتركة مع ما يمرّ به مسيحيو سورية والعراق مع اختلاف أساسي هو أن المسيحيين في لبنان لا يزالون شركاء بالمناصفة في معظم مقامات السلطة، وإن كان وصول نوابهم إلى المجلس النيابي يرتبط بالمحيط المسلم في الدوائر ذات الأغلبية المسلمة، وهو واقع لن يغيّر فيه أي قانون انتخابي مهما كان مفّصلاً على مقاس أحزاب أو أفراد.

وفي سياق تطرقنا للعوامل التي أدّت إلى تناقص نسبة المسيحيين سنقوم بعرض كل عامل على حدة، ثم تبيان واقعه وخلفياته الاجتماعية – الثقافية في كل بلد من البلدان الثلاث.

2- أسباب انخفاض نسب المسيحيين في المشرق

لا يمكن ربط نسبة انخفاض حجم مسيحيي المشرق مقارنة بمجموع السكان بسبب واحد فحسب، بل هو ناتج عن تضافر مجموعة من العوامل، حتى أن بعض هذه العوامل يمارس تأثيراً على عوامل أخرى لينشأ ما يشبه الحلقة المفرغة.

1.2 الخصوبة

تعتبر الخصوبة العامل المباشر والأساسي الذي يؤدي إلى تناقص أو تزايد عدد السكان. وحين يتألف السكان من مجموعات متمايزة بين بعضها بعضاً، لناحية الطبقة أو العرق أو الطائفة أو الإثنية، يمكن لاختلاف الخصوبة بين هذه المجموعات أن يسبب اختلالاً في نمو الجماعات بحيث تنمو واحدة منها أسرع مما تنمو الأخرى. هذا ما يعرف بالخصوبة التفاضلية. (برسا، 1989، الصفحات 129-130)

للتعرف على التأثير الذي يمارسه الدين، باعتباره جزءاً أساسياً من الثقافة، على الخصوبة، نقدم أربع فرضيات أساسية:

- الأولى وهي فرضية الخصائص Characteristics Hypothesis، تعتبر أن الخصوبة التفاضلية بين الأديان والطوائف تعود إلى اختلاف خصائص هذه الجماعات، أي الى الاختلافات الديموغرافية الاجتماعية والاقتصادية بين جماعة دينية وأخرى. (Moulasha & Rama Rao, 1999, p. 3047)
- الفرضية الثانية وهي "الخصوصية اللاهوتية" 'Particularized Theology، تذهب إلى أن الأسباب الكامنة وراء الخصوبة التفاضلية تعود إلى العقيدة الدينية. هكذا، فاختلاف الخصوبة سببه اختلاف الدين. وبهذا يعلل أنصار هذه الفرضية أن سبب كون المسلمين أكثر خصوبة، يكمن في الإسلام نفسه. (Moulasha & Rama Rao, 1999, p. 3047)
- الثالثة وتعرف باسم فرضية "حالة أو وضع الأقليات" Minority Group Status، تقول بأن خصوبة الجماعات الصغرى، أو الأقليات، تتأثر بشكل مباشر بأوضاعهم داخل المجتمع. هكذا، فإن خصوبة الجماعات الصغرى تنخفض مقارنة بالكبرى عندما تتثاقف الأقليات مع الأكثريات، وعندما تتحقق المساواة (بين الجماعات الكبرى والصغرى) ويسمح بالتدرج الاجتماعي وعندما لا تكون عقيدة الجماعة الصغرى تشجع أو تدفع إلى زيادة الخصوبة. (Moulasha & Rama Rao, 1999, p. 3047)

- الفرضية الرابعة وهي "التفاعلية" Interaction Hypothesis (Chamie, 1976) التي قدمها جوزيف شامي عام 1976. وهي الأقرب إلى ما نتبعه في عملنا، إذ تنحو إلى أن الخصوبة التفاضلية تنتج عن التفاعل بين الدين والمستوى الاقتصادي – الاجتماعي للمجموعات. فالخصوبة تتقارب بين الجماعات الدينية المختلفة عند الفئات الدنيا والعليا، وتتباعد عند المستويات الاقتصادية – الاجتماعية المتوسطة للجماعات الدينية المختلفة. ويضيف شامي إلى أن هذه الفرضية تصحّ فقط في المجتمعات التي بدأت تخضع للتحول الديموغرافي[10] Demographic Transition لأن المجتمعات السابقة لهذا التحول لا يوجد فيها أي تأثير للدين حيث تكون الخصوبة مرتفعة عند الجميع مهما كان معتقدهم. (Chamie، 1976) (Moulasha و Rama Rao، 1999، صفحة 3047). ففي القرن التاسع عشر كانت الخصوبة مرتفعة عند جميع أبناء المشرق بغض النظر عن طائفتهم، حيث لم تكن أي دولة قد دخلت في مرحلة التحول الديموغرافي بعد. بدأ هذا الأمر يتغير تدريجياً اعتباراً من نهاية القرن التاسع عشر، وأصبح واضحاً في القرن العشرين.

تفسر فرضية شامي Chamie ما يحصل في دول المشرق. فالدين ليس المؤثر الوحيد على الخصوبة. صحيح أن المسلمين لا يزالون أعلى خصوبة، إلا أن التفسير المركب الذي قدمته فرضية شامي يمكن أن تقدم فهماً أعمق لهذه الظاهرة. ففي دراسة لمركز PEW حول توقعات النمو السكاني وعلاقته بالأديان في العالم توصّل المركز إلى أن النمو لن يكون نفسه بين المسلمين والمسيحيين، فخصوبة المسلمين لا تزال أعلى. ففي مصر مثلاً تبلغ خصوبة المسلمين 2.7 ولداً لكل امرأة مقابل 1.9 أولاد لكل امرأة مسيحية. هذا سيؤدي إلى زيادة مستمرة في نسبة المسلمين مقارنة بالمسيحيين. (Pew Research Center, 2015) ينتشر هذا الواقع في كل الدول العربية وفي دول المشرق. ففي العراق، قبل بداية التحول الديموغرافي، كانت الخصوبة مرتفعة عند المسيحيين والمسلمين على حد سواء. فنسبة المسيحيين زادت في العراق من 3% عام 1922 إلى 3.3% عام 1947. (بطاطو، ح.، 1995، صفحة 60) وحافظوا على هذه النسبة حتى تعداد 1957 لا بل سجلوا نسبة نمو طبيعية تقارب الـ 3.3% وهي ليست ببعيدة عن نسبة النمو عند

[10]. تقوم نظرية التحول الديموغرافي باختصار على أن المجتمعات الإنسانية كانت كلها ذات خصوبة مرتفعة ووفاتية مرتفعة. مرت بعض الدول بسلسلة تغيرات اجتماعية واقتصادية أدت إلى انخفاض حاد بالوفيات مع بقاء الخصوبة كما هي. هذا ما أدى إلى نمو سكاني مرتفع. في المرحلة اللاحقة قامت المجتمعات بتخفيض الخصوبة طوعاً لتتماشى مع انخفاض الوفاتية، ما ساهم في استقرار النمو السكاني. إلا أن عدداً من المجتمعات استمر في خفض خصوبته، الأمر الذي نتج عنه نمو سكاني سلبي.

المسلمين التي كانت 3.5%، وهذا ما يؤكد ما قلناه حول صحة فرضية جوزيف شامي على العراق. (عطيه، ديموغرافيا المشرق، 2019، صفحة 292)

في الحقيقة لا يمكن أن نشير إلى انخفاض خصوبة مسيحيي العراق، عن مثيلتها لدى المسلمين، إلا في الفترة الحديثة بسبب ازدياد أعمال العنف التي تستهدف المسيحيين والأقليات الأخرى في العراق، وذلك بعد احتلال العراق وما نتج وينتج عنه لليوم[11].

تعاني سورية من المشكلة نفسها لناحية غياب دراسات مباشرة حول العلاقة بين الخصوبة والطائفة، ما يضطرنا إلى الاستعانة بدراسات إحصائية في غير مكانها، أي تفسير نمو الطوائف وفقاً لمتطلبات هذه الدراسة. وفي مقارنة بين نتائج التعداد الذي أجري عام 1922 وذلك الذي أجري عام 1953 نجد أن نمو المسيحيين (4.33%) كان أكثر من نمو المسلمين (3.71%) (De Vaumas, 1955, p. 75). إلا أن هذا النمو لم يكن نمواً طبيعياً، بل هو مضخّم بسبب موجات الهجرة الأرمنية والسريانية والكلدانية التي قدمت إلى سورية في هذه الفترة.

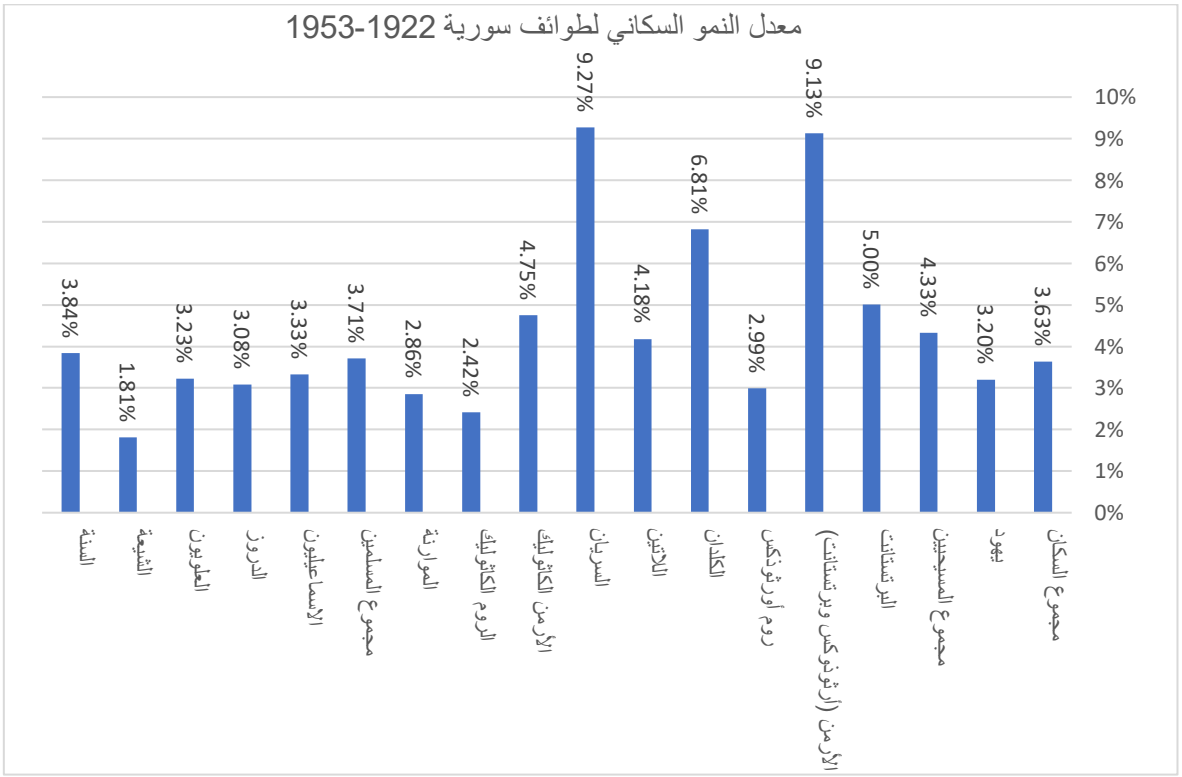

رسم بياني 5: معدل النمو السكاني لطوائف سورية 1922–1953

[11]. تعود هذه المعلومة إلى مقابلة أجريت مع رجل دين مسيحي عراقي، أتحفظ عن ذكر المصدر لأن المقابلة لم تكن مخصصة لهذه الدراسة.

لكي نفهم النمو الطبيعي الذي حصل عند الطوائف، يجب أن نقارن الأرقام بين الطوائف التي لم تتأثر بموجات هجرة مكثفة. فإذا قارنّا النمو عند المسلمين السنّة (3.84%) والروم الأرثوذكس (2.99%) لتبيّن معنا أن الخصوبة التفاضلية كانت تلعب دوراً في التأثير على نسب المسيحيين في سوريا منذ منتصف القرن العشرين. وبما أن هذا النمط قد وجد في وقتها فلا بد إلا أنه تعاظم مع الوقت وفقاً لفرضية Chamie.

إلا أن الخصوبة التفاضلية كانت أكثر وضوحاً في لبنان بين طوائفه المختلفة. يعود ذلك إلى عدة أسباب: أولاً، وجود عدد من الدراسات التي سمحت لنا باكتشاف هذا الواقع. وثانياً، والأهم، كون طوائف لبنان لا تعتبر أكثريات في مقابل أقليات. بل هي مجموعة من الأقليات: الكبرى والمتوسطة والصغرى. وهذه الطوائف أكثر تقارباً بين بعضها بعضاً للناحية الاجتماعية–الاقتصادية عما هي عليه في سورية والعراق.

أوضح جوزيف شامي في دراسة تعود إلى عام 1971 واقع الخصوبة التفاضلية في لبنان، قبل أن يصل إلى وضع فرضيته عام 1976، وذلك بدراسة أجراها على الطوائف اللبنانية مع إدخال عدد من المتغيرات الأساسية في الحسبان. (Chamie, Religious Differentials in Fertility: Lebanon, 1971, 1977)

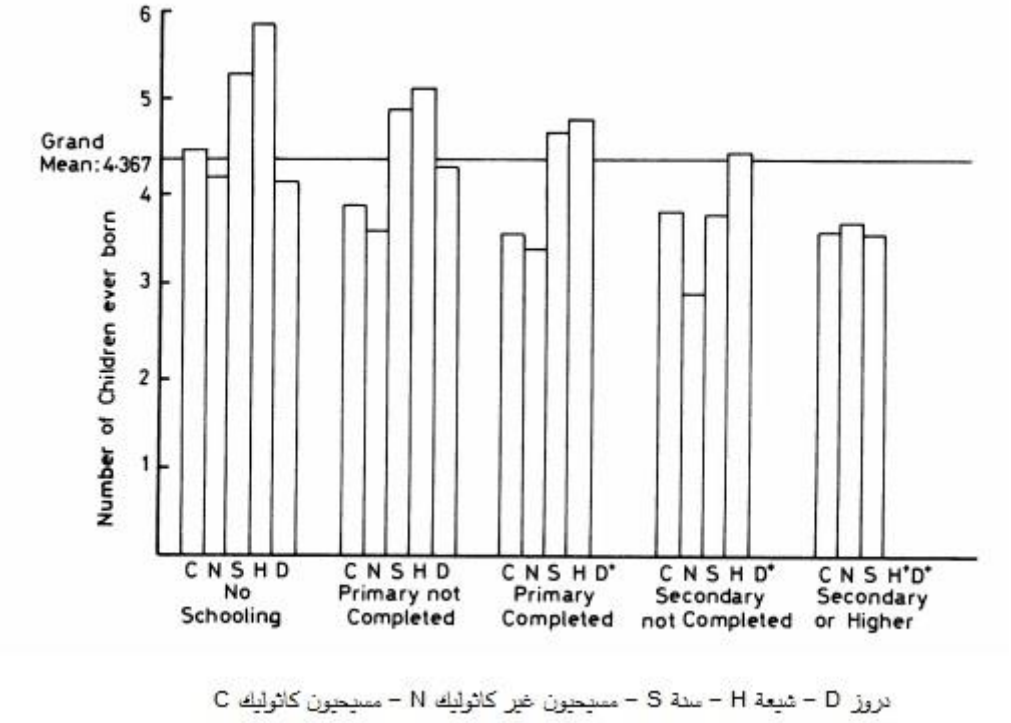

رسم بياني 6: تأثير المستوى الدراسي على خصوبة المرأة وفقاً للطوائف، لبنان 1971[12]

[12]. أخذ الرسم كما هو من دراسة جوزيف شامي. (Chamie, Religious Differentials in Fertility: Lebanon, 1971, 1977)

هكذا يتبين أن النساء من الطائفة السنّية ومن الطوائف المسيحية يتشابهن في خصوبتهن عند المستويات التعليمية المتقدمة، ويختلفن بشكل واضح عند المستويات الأقل تقدّماً.

لم تتوقف هذه الظاهرة الديموغرافية في لبنان، بل هي لا تزال مستمرة لليوم، حيث انخفضت الخصوبة عند جميع اللبنانيين. إلا أن انخفاضها كان أكثر وضوحاً عند المسيحيين. وفي دراسة ميدانية أجريتها عام 2009 على 550 أسرة من مختلف الطوائف والمناطق اللبنانية، نشرت نتائجها في كتاب "السكان في لبنان"، وهو بالأصل أطروحة الدكتوراه الخاصة بي، تبيّن عدداً كبيراً من المعطيات الخاصة بالخصوبة التفاضلية في لبنان سنعرض بعضها هنا.

من أهم المؤشرات الدالّة على ما ستكون عليه الخصوبة، نذكر العمر عند الزواج الأول، إذ مع ارتفاعه تنخفض الخصوبة. وأتت نتائج الدراسة لتبيّن أن العمر عند الزواج الأول للمسلمين هو أدنى من مثيله عند المسيحيين، وذلك عند كل الطوائف. حيث بلغ مثلاً 27.13 عاماً عند الشيعة مقابل 32.04 عاماً عند الكاثوليك.

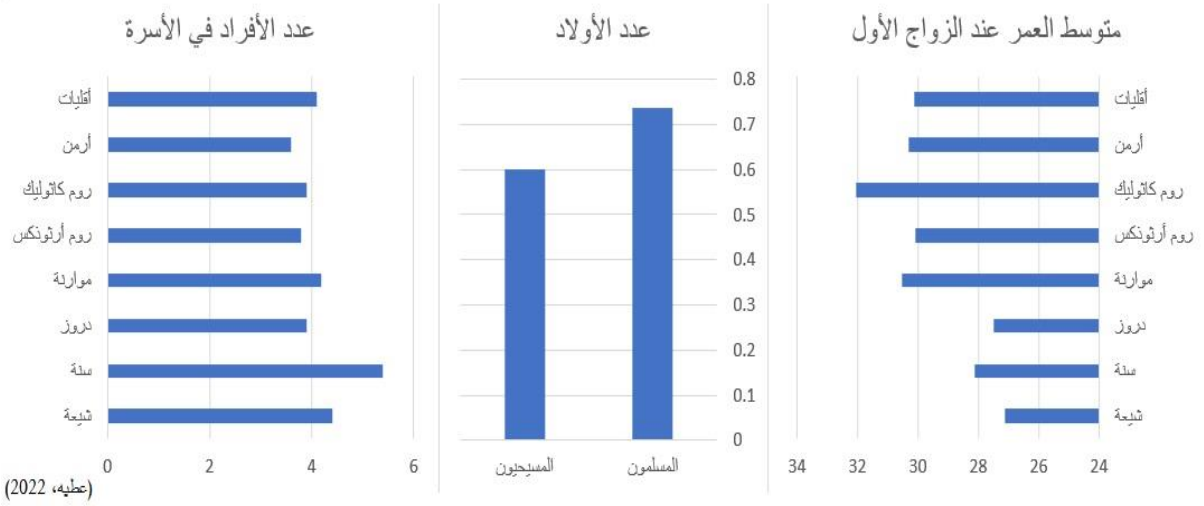

رسم بياني 7: متوسط العمر عند الزواج الأول – متوسط عدد الأولاد للأسرة الواحدة في السنة الأخيرة – متوسط عدد أفراد الأسرة، دراسة ميدانية – لبنان 2009 ((عطيه، السكان في لبنان، 2014)

تظهر الاختلافات أيضاً بين الطوائف لناحية متوسط عدد الأفراد في الأسرة الواحدة، وهو وإن كان مؤشراً مركباً بين الخصوبة والوضع الاقتصادي، يعطي دلالة حول الاختلاف في الخصوبة. هكذا نجد أن متوسط عدد الأفراد عند السنّة هو 5.4 بينما هو 3.6 عند الطوائف الأرمنية و3.8 عند الأرثوذكس.

ومع هذا، وتناغماً مع فرضية شامي، بيّنت نتائج الأطروحة أن السبب الأساس والأهم في الخصوبة التفاضلية بين طوائف لبنان هو المستوى التعليمي، وما أدى إلى تراكم تاريخي اقتصادي – اجتماعي بين طوائف ذهبت إلى التعليم الحديث قبل غيرها بعقود. (عطيه، السكان في لبنان، 2014)

صحيح أن هذه الهوّة في التعليم قد ردمت، إلا أن السلوك الانجابي يصبح من ضمن الخصائص المذكورة في الفرضية الأولى، والتي تعيد انتاج نفسها عند كل جماعة من الجماعات. هكذا اعتبر المسيحيون في لبنان أن الخصوبة المنخفضة هي دليل تحضّر، ولحقهم في ذلك المسلمون وإن متأخرين.

2.2 الهجرة

تلعب الهجرة الدور الأساس في الديناميّات الديموغرافية في المشرق. تُحدث موجات الهجرة المنظمة في السكان تحولات فورية يلزم للنمو الطبيعي (الولادات والهجرة) عقود من الزمن لكي توازنها. لم تكن الهجرة المسيحية دائماً مغادرة للمشرق، لا بل على العكس، فأهم أسباب الزيادة العددية والنسبية لمسيحي المشرق خلال مراحل الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان تعود لهجرة مسيحية منظمة إلى هاتين الدولتين.

تمثّلت المرحلة الأولى من الهجرة الوافدة إلى لبنان وسورية بقدوم عشرات آلاف الأرمن الهاربين من الاضطهاد التركي خلال عقدين من الزمن. أدّت هذه الموجات إلى زيادة ملحوظة في نسبة المسيحيين وأعدادهم في لبنان. ففي حين بلغت نسبة المسيحيين المسجلين بأنهم من طوائف مختلفة 2.1% (عددهم 12651) ارتفعت هذه النسبة إلى 6.8% وعددهم إلى 53436 نسمة عام 1932. (عطيه، السكان في لبنان، 2014). وفي الحقيقة فإن هذه الهجرة هي ما حافظ على تفوّق نسبة المسيحيين على المسلمين في آخر تعداد أجري في لبنان عام 1932. من هنا ندرك لماذا لم تعمد سلطات الانتداب، ومن بعدها الحكومات اللبنانية، إلى إجراء أي تعداد شامل منذ ذلك التاريخ.

أما في سورية، وبالإضافة إلى موجة الهجرة الأرمنية الأولى في الربع الأول من القرن العشرين، فقد شهدت، بعد سلخ لواء الاسكندرون عنها، موجة هجرة أرمنية ومسيحية جديدة تمثّلت في 30 ألف لاجئ، 25 ألفاً منهم من الأرمن. وبالعودة إلى الرسم 5 أعلاه، نتأكد من هذا الأمر من خلال ارتفاع معدلات النمو عند الأرمن والأشوريين والسريان. ويعود السبب في ذلك إلى العام 1933، حيث طالت أعمال عنف كلاً من السريان والكلدان والأشوريين في العراق، وذلك إثر استقالة لواء أشوري من الجيش العراقي بعد أن رُفضت مطالب بطريركهم "مار شمعون الثالث والعشرين" في اعتبار الأشوريين شعباً، والاعتراف به زعيماً دينياً

ودنيوياً عليهم. بعد رفض السلطات العراقية هذه المطالب واستقالة اللواء، وقعت مواجهات بينه وبين الجيش العراقي. وكان أن لجأ الكثيرون من الأشوريين إلى سورية حيث عاشوا هناك كسوريين في الحسكة وحلب والقامشلي وبقوا فيها إلى اليوم. ويقدّر عدد الأشوريين والسريان الذين نزحوا من العراق بأكثر من 33 ألف شخص استقروا بأغلبيتهم في سورية، كما استقر قسم منهم في بيروت في حي ما زال يحمل اسمهم إلى اليوم. (ديب، ك.، 2013، صفحة 50) (الجبين، إ.، 2014)

إذا كانت الهجرة الوافدة إلى سورية قبل الاستقلال قد ساهمت في الحفاظ على ثبات نسبة المسيحيين فيها لا بل على زيادة نموهم، فإن الوضع تغير بعد الاستقلال وما مرّت به البلاد من عدم الاستقرار. ففي بداية الستينيات بلغت الهجرة المغادرة لسورية حوالي النصف مليون نسمة، وقد قصدت هذه الهجرة لبنان أو أوروبا، وكان اللافت أن نصف هذه الهجرة مكوّن من المسيحيين. هكذا انخفضت نسبة المسيحيين السوريين بشكل ملحوظ، يقدّره بعض الباحثين بالنصف خلال بضع سنوات. ففي حين كانت نسبة المسيحيين عام 1953 تتجاوز الـ13% من مجموع السكان، لم تعد هذه النسبة تتجاوز الـ 8%. وعلى أثر هذه الهجرة لم يعد يندر أن تجد أحياءً هاجرت بأكملها في مدن مثل حلب حيث تضاءل عدد المسيحيين من 123000 إلى 88000 بين 1943 و1960. (Seurat, 1980, p. 39)

صحيح أن الهجرة المدفوعة بأسباب طائفية ستتراجع بعد العام 1970 في سورية، إلا أنها كانت قد أثّرت على نسبة المسيحيين من المجتمع السوري بشكل واضح، حتى أصبحت نسبة المسيحيين في سورية عام 1978 لا تتجاوز 6.6%، أي أنها تراجعت بمقدار النصف في ربع قرن. (Bianquis & Al Dbiyat, 1995, p. 87)

بقيت الهجرة تشكّل عامل استنزاف لمسيحيي سورية، ففي تقرير منشور عام 2002 أشارت مؤسسة الإغاثة الكاثوليكية للشرق الأدنى CNEWA إلى أن نسبة المسيحيين المغادرين لسورية من مجموع المغادرين هي أعلى بكثير من نسبة المسيحيين بالنسبة لسكان سورية. (CNEWA، 2002). تفاقُم الوضع بعد الحرب في سورية وظهور تنظيم داعش وما ترافق معه من أعمال إرهابية أدت إلى تهجير مئات الآلاف من السوريين من أراضيهم. قلّصت هذه المتغيرات نسبة المسيحيين في سورية، عام 2014، إلى 5% من مجموع السكان البالغ 21 مليوناً. وإذا نظرنا إلى نسبة المسيحيين بين اللاجئين السوريين خارج سورية نجد أن نسبتهم تقارب الـ 8% أي أنها أعلى من نسبتهم داخل البلد، وهذا ما يؤكد الاستنزاف الديموغرافي الذي عانى منه المسيحيون خلال سنوات الحرب في سورية. هكذا، نجد أن الباقين في سورية من المسيحيين هو نصف

العدد الذي كان موجوداً قبل بداية الأزمة. وأكثر المسيحيين تأثراً هم الأرمن الذين كان عددهم في حلب يناهز الـ 150 ألفاً لم يبق منهم اليوم إلا بضعة آلاف. وقد هاجر معظم الأرمن إلى أرمينيا أو إلى الولايات المتحدة وكندا. (Balanche, 2018, pp. 20-22)

إذا كانت الهجرة المسيحية المغادرة للعراق توجهت في مراحلها الأولى إلى سورية ولبنان، فإنها بدأت، ومنذ الستينيات، تقصد الغرب، وخاصة الولايات المتحدة التي أصبحت وجهة مفضلة لها. (Hughes, 2017, p. 49). تسارعت موجات الهجرة العراقية، وخاصة بين المسيحيين بعد الغزو عام 2003، إذ تشير الإحصاءات إلى أن عدداً يتراوح بين 10 و40 ألف مسيحي غادروا العراق في شهر تشرين الأول من عام 2005. وفي الفترة الممتدة بين تموز 2006 وآذار 2007 قامت المؤسسة الكلدانية في أميركا CFA بمعالجة بيانات 12 ألف لاجئ مسيحي عراقي، فتبين معها أن 90% من الإجابات أكدت أن السبب الأساسي لمغادرتهم العراق كان هرباً من الاضطهاد الديني. (Hughes, 2017, p. 52)

تسارعت موجات الهجرة والنزوح بعد تقدم داعش وسيطرتها على ثلث مساحة العراق. وإذا كان أبناء الأقليات الدينية والعرقية هم أول من هجر مسكنه، إلا أن أبناء السنّة لم يتأخروا عن اللحاق بهم لما عانوه من صعوبة عيش في ظل حكم داعش. (هيغل، ل.، 2016، الصفحات 9–13). كانت نسبة المسيحيين في العراق في أقصاها عند بداية الانتداب البريطاني. إلا أن مسيحيي العراق سرعان ما بدأوا موجة هجرة إلى الخارج وخاصة الأشوريين منهم. استقرت نسبة المسيحيين في العراق بعد الاستقلال، مروراً بكل الخضّات السياسية التي مرّت بها البلاد، وصولاً إلى بداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وذلك عند مستوى الـ 3%. إلا أن ما مرّ به العراق، ومناطق الأقليات عامة، والأقليات المسيحية خاصة، في السنوات الأخيرة، أدى إلى موجة هجرة مغادرة تسبّبت بخفض نسبة المسيحيين في العراق إلى حدود الـ 1% لأول مرة في تاريخه. لم تتوقف موجات الهجرة بعد هزيمة داعش، لا بل بقيت على وتيرتها، ما خفّض نسبة المسيحيين إلى ما دون الـ 1% اليوم. ويعود السبب الأساسي في استمرار الهجرة إلى فقدان المسيحيين لحسّ الانتماء إلى العراق، وإلى تشجيع المهاجرين السابقين للعراقيين المسيحيين الذين بقوا في العراق إلى مغادرته. (Hindy, 2019, p. 26)

لعبت الهجرة في لبنان، منذ أيام المتصرفية، دوراً أساسياً في صياغة المجتمع. فالهجرة في لبنان، القديم والحديث، ظاهرة تاريخية دائمة متراكمة. فهي لم تتوقف إلا لأسباب طارئة كالأزمة العالمية بعد 1929 أو الحروب العالمية أو جائحة الكوفيد. طالت الهجرة جميع الطوائف اللبنانية من دون تمييز، وإن كان

المسيحيون أكثر جهوزية للهجرة في البداية نظراً لمستواهم التعليمي المرتفع. إلا أن سرعان ما أصبحت المستويات التعليمية متشابهة عند الجميع. هنا يلعب التراكم دوراً في تشجيع هجرة جماعات أكثر من غيرها حيث تلتحق بأقارب لهم سبقوهم إلى البلاد المستقبلة للهجرة.

لا يمكن أن نعتبر أن إحدى الجماعات اللبنانية قد عانت من اضطهاد مستدام داخل البلد، بل يمكن أنها عانت بعض المشكلات داخل مناطق دون أخرى، الأمر الذي أدى إلى إعادة توزيع الطوائف اللبنانية داخل البلد، ولم تدفعها إلى مغادرته نهائياً. فنظريات الهجرة تشير إلى أن حركة الهجرة تمر بمراحل وتنتقل حركة المهاجرين وفقاً لمنطق جغرافي محدد، بحيث يلجؤون أولاً إلى المناطق الأقرب لهم. أما أثناء ما اصطلح على اعتباره بفترة الإحباط المسيحي من عام 1990 إلى عام 2005، كانت حركة الهجرة إلى الخارج مرتفعة عند الجميع. ولكنها أكثر ارتفاعاً لدى الموارنة تحديداً. ففي إعادة قراءة لنتائج دراسة أجرتها الدولية للمعلومات عام 2001 على عينة من 100 ألف مهاجر، وتبين فيها للوهلة الأولى أن المسلمين والمسيحيين يهاجرون بنسب متفاوتة، يمكن أن نعرض النتائج بطريقة مختلفة لتبيان حقيقة معينة.

جدول 4: مقارنة بين نسب طوائف اللبنانيين المغادرين والمقيمين، 2001 و2006

الطائفة	نسبة المهاجرين	نسبة المقيمين 2006
موارنة	30.00%	19.24%
روم أرثوذكس	6.60%	6.78%
كاثوليك مختلف	5.10%	5.00%
أرمن	4.60%	2.80%
شيعة	30.40%	29.17%
سنة	18.30%	29.24%
دروز	5.30%	5.42%
المصدر: (CNEWA, 2002) – (الدولية للمعلومات، 2007، صفحة 3)		

يظهر الجدول 4 أعلاه أن جميع نسب المغادرين والمقيمين متشابهة، لا بل تكاد تكون متساوية باستثناء نسبة الموارنة المغادرين، حيث بلغ الفرق بين نسبة المغادرين والمقيمين حوالى 10.76% لصالح المغادرين. يعوض هذا الفارق نسبة السنّة حيث يبلغ الفرق بين المغادرين والمقيمين 10.23%، ولكن هذه المرة لصالح المقيمين. وكأن الهجرة في هذه الفترة كانت تعبيراً صادقاً عن إحباط ماروني وليس مسيحياً في ظل القوة

السنّية التي تجسدت خاصة من 1992 إلى 2005، قبل أن تصبح بدورها إحباطاً كما يعبّر عنه الكثيرون بعد هذه الفترة.

3-2 التعمّر

تتضافر مجموعة من العوامل الأخرى لتكبح دينامية التزايد المسيحي في المشرق، وهي بمعظمها مرتبطة بالخصوبة والهجرة. فانخفاض الخصوبة، مقترناً بهجرة مرتفعة، وخاصة عند الفئات الشابة، يؤدي إلى تعمّر السكان، بحيث تزداد نسبة المسنّية مقارنة ببقية الفئات. يتجلى هذا الأمر بوضوح في لبنان الذي يعتبر اليوم أكثر المجتمعات العربية تعمّراً بنسبة مسنين تزيد عن 12% (CAS، 2020، صفحة 26). إلا أن واقع الأمر يبيّن أن الجماعات المسيحية في لبنان أكثر تعمّراً من الجماعات المسلمة. ففي الدراسة الميدانية التي أجريتها عام 2009 تبيّن أن هناك فروقاً واضحة بين الأعمار المتوسطة والوسيطة للطوائف في لبنان. ففي حين كان العمر الوسيط للسنّة 25 عاماً كان العمر الوسيط للأرثوذكس والأرمن يتخطى الـ 35 عاماً.

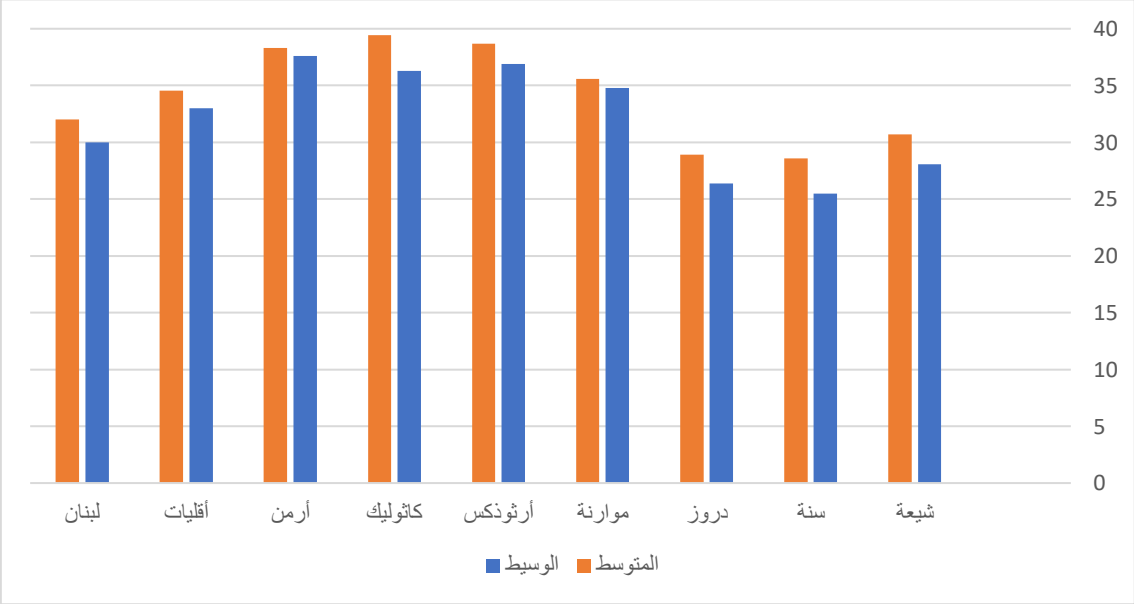

رسم بياني 8: الأعمار الوسيطة والمتوسطة للطوائف في لبنان، 2009 (عطيه، السكان في لبنان، 2014، صفحة 125)

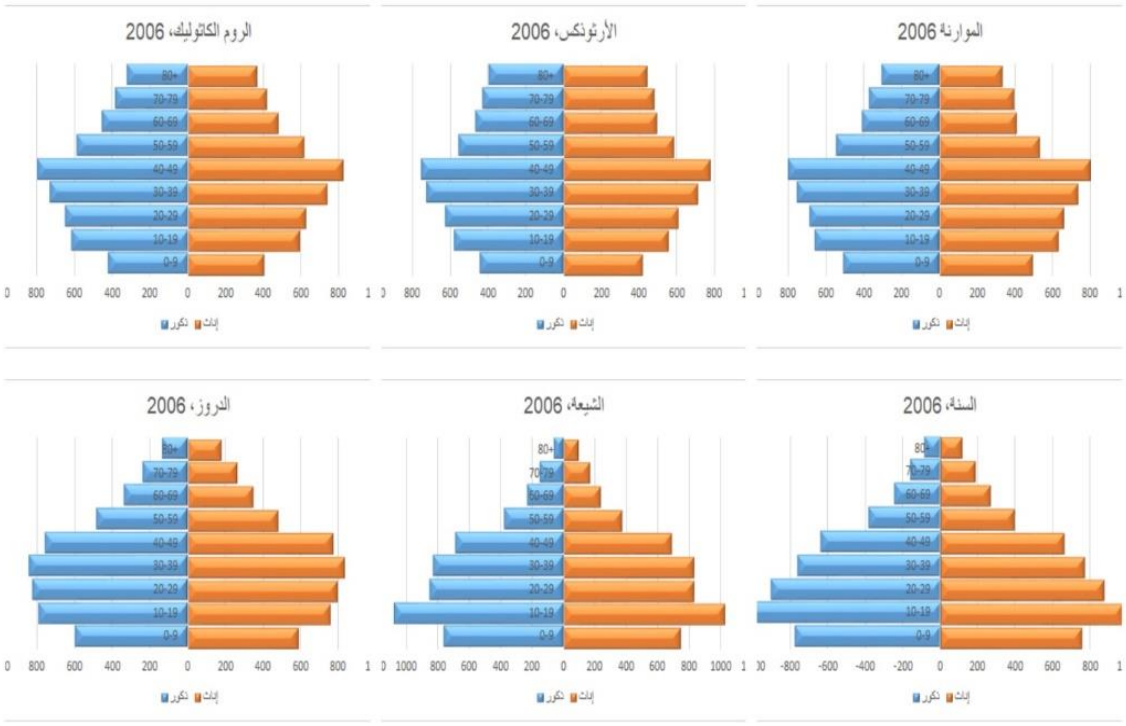

رسم بياني 9: أهرام الأعمار بالفئات العشرية للطوائف الكبرى في لبنان، 2007 (الدولية للمعلومات، 2007، الصفحات 4–7)

أتت هذه الأرقام لتؤكد ما قدمته الدولية للمعلومات قبل ذلك بثلاث سنوات حول اختلاف البنى العمرية للبنانيين. فالأهرام ذات القواعد العريضة (خصوبة مرتفعة – مجتمع فتي) كلها تعود للطوائف المسلمة، أما الأهرام ذات القواعد الضيقة والوسط المنتفخ (خصوبة منخفضة – مجتمع يتجه للهرم) تعود كلها إلى الطوائف المسيحية. هكذا، نرى أن المسيحيين في لبنان أكثر تعمّراً، الأمر الذي سينعكس سلباً على خصوبتهم، خاصة إذا قارنا الأمر مع ارتفاع العمر عند الزواج الأول المذكور سابقاً.

تنتشر ظاهرة التعمّر في كل المجتمعات التي تعاني من انخفاض الخصوبة وارتفاع هجرة الشباب، وهي بالتالي ستطول مسيحيي العراق وسورية، وإن بدرجة أقل حدّة مما يحصل في لبنان.

من خلال كل ما تقدم، لا يمكننا أن نرسم إلا صورة سوداوية لمستقبل المسيحيين في المشرق. فالدراسات اللبنانية أشارت منذ عام 2007 إلى أن نسبة المسيحيين في لبنان لن تتجاوز الـ 27% للفرضيات الأكثر تفاؤلاً والـ 12% للفرضيات الأكثر تشاؤماً. (الدولية للمعلومات، 2007، الصفحات 8–9)

أما في سورية والعراق، فإن التوقعات القريبة (قبل 2030) ترجّح وصول نسبة مسيحيي العراق إلى حدود الصفر ومسيحيي سورية إلى أقل من 2.5%. (The Economist, 2016)

3-في المحصّلة

في المحصلة لكل ما تقدم، ستستمر أعداد المسيحيين ونسبهم في كل دول المشرق بالتراجع، وصولاً إلى الاضمحلال عاجلاً أو آجلاً. لا يمكن تخيّل أي نتيجة لانخفاض الخصوبة ولاستمرار الهجرة إلا هذه النتيجة. فالظواهر الديموغرافية تصبح مركّبة مع الوقت: انخفاض الخصوبة وارتفاع الهجرة يؤديان إلى تعمّر السكان وإلى المزيد من تراجع الخصوبة.

لا تكمن الحلول لهذه المشكلة في تجاهلها، ولا في الاستسلام لها. بالطبع لا تكمن الحلول في محاولة التحاذق عليها ونشر دراسات تؤكد أن المسيحيين عاودوا الزيادة وسترتفع نسبهم في المستقبل المنظور[13]. تبدأ الحلول في اكتشاف أسباب المشكلات. وأسبابها تكمن في:

- انخفاض الوعي الديموغرافي والمقترن بالحس القومي، وذلك على الصعيدين العام (الدولة) والخاص (الدين).
- ضعف المحفّزات المقدمة للشباب المسيحي في المشرق للزواج أولاً وللإنجاب ثانياً.
- اقتران الخصوبة المرتفعة بمفاهيم التخلف والدونية.
- سيادة مفهوم الأقلية والتمسك به عوضاً عن المكوّن، الأمر الذي يبقي أبناء الجماعات الصغرى ضمن مفهوم الدول الطائفية، ويلغي مفهوم دولة المواطنة إلى الأبد.
- غياب دولة المواطنة وغياب مفهوم المواطنة أصلاً.
- استمرار التعامل مع المكوّنات الصغرى بدونية (دساتير – ممارسات – قوانين..)

وعليه، لن أدخل في اقتراحات لهذه المشكلات، لأنني أكيد أن عشرات قبلي قاموا بذلك، وبقيت حبراً على ورق. أنما سأسمح لنفسي أن أقدّم اقتراحين أو تمنّيين لا بد من تنفيذهما للحفاظ على ما تبقّى من المسيحيين في المشرق:

أولاً لا بد أن نعرف من تبقّى أصلاً، من خلال القيام بدراسات ومسوح تأخذ في عين الاعتبار المتغيرات الأساسية التي سبق وتحدثنا عنها. دراسات تبيّن فعلياً خصوبة المسيحيين وأعدادهم، والأسباب التي تدفعهم للهجرة أو البقاء.

[13]. راجع ما كتبناه في هذا السياق عن دراسة أجريت عام 2013 بعنوان الواقع السكاني في لبنان، وكيف استقبلتها الأحزاب والقوى المسيحية بالتهليل والتصفيق في كتاب ديموغرافيا المشرق من صفحة 264 إلى صفحة 269.

ثانياً لا بد للمسيحيين إلا أن يدركوا، هم وكل أبناء المشرق، أنهم أولاً وآخراً أبناء له. هم مواطنون وليسوا أبناء طوائف، لا ذمّية ولا ملوكية. وحين يتمكّنون من التصرف والعيش على هذا الأساس، فإن معظم المشكلات المذكورة أعلاه ستنتفي من أصلها.

شوقي عطيه

السامرية

2022-11-3

لائحة المراجع

- برسا، ر. (1989). معجم مصطلحات الديموغرافيا. (حلا نوفل رزق الله، المترجمون) بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- بطاطو، ح. (1995). العراق الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية (الإصدار 2). (ع. الرزاز، المترجمون) بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.
- الجبين، إ. (05 04, 2014). الآشوريون في سوريا الضلع السامي المنسي وبقايا حضارة عملاقة. تم الاسترداد من العرب:

https://alarab.co.uk/%D8%A7%D9%84%D8%A2%D8%B4%D9%88%D8%B1%D9%8A%D9%88%D9%86-%D9%81%D9%8A-%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%B6%D9%84%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%A7%D9%85%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D8%B3%D9%8A-%D9%88%D8%A8%D9%82%D8%A7%D9%8A

- دائرة الإحصاءات العامة. (2022). دائرة الإحصاءات العامة. تم الاسترداد من dosweb.dos.gov.jo: http://dosweb.dos.gov.jo/
- الدولية للمعلومات. (أيلول, 2007). نهاية لبنان كما نعرفه. الشهرية(47).
- ديب، ك. (2013). موجز تأريخ العراق. بيروت: دار الفارابي.
- الشاعر، و. (2004). الأردن.. إلى أين؟ الهوية الوطنية والاستحقاقات المستقبلية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- عطيه، ش. (2014). السكان في لبنان. بيروت: دار نلسن.
- عطيه، ش. (2019). ديموغرافيا المشرق. جونية: مركز المشرق للأبحاث والدراسات.
- مديرية احصاءات السكان والقوى العاملة. (2020). تقديرات سكان العراق 2020. بغداد: مديرية احصاءات السكان والقوى العاملة. تم الاسترداد من

https://cosit.gov.iq/documents/population/projection/%D8%AA%D9%82%D8%AF%D9%8A%D8%B1%D8%A7%D8%AA%20%D8%B3%D9%83%D8%A7%D9%86%20%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D9%82%202020.pdf

- هيغل، ل. (2016). أزمة النزوح في العراق: الأمن والحماية. لندن: مركز سيسفاير لحقوق المدنيين.

- ARDA. (2020). Syria: Largest Religious Groups (1900 - 2050). Retrieved from TheArda.com: https://www.thearda.com/world-religion/national-profiles?u=217c
- Augustin, B. (1924). Les populations de la Syrie et de la Palestine d'après les derniers recensements. Annales de géographie(181), 73-79.
- Balanche, F. (2018). Sectarianism in Syria's Civil War. Washington: The Washington Institute for Near East Policy.
- Bianquis, A.-M., & Al Dbiyat, M. (1995, 2 1). La Population Syrienne: Un Tournant Démographique? Méditerranée(81), 81-90.
- CAS. (2020). Labour Force and Household Living Conditions Survey 2018-2019. Beirut: CAS.
- Chamie, J. (1976). Religious Fertility Differentials in Lebanon. Michigan: University of Michigan.
- Chamie, J. (1977, July). Religious Differentials in Fertility: Lebanon, 1971. Population Studies, 365-382.
- CNEWA. (2002, January). Christian Emigration Report: Lebanon and Syria. Retrieved from CNEWA.org: https://cnewa.org/christian-emigration-report-lebanon-and-syria/
- Courbage, Y. (1999). Economic and Political Issues of Fertility Transition in the Arab World. 353-380. Retrieved from https://www.jstor.org/stable/27503652
- De Vaumas, E. (1955). Asie. Annales De Géographie, 64(341), 74-80.
- Dumont, G.-F., & Montenay, Y. (2002). L'Irak Géoploitique et Populations. Population et Avenir(660), pp. 4-7.
- Hindy, E. A. (2019). Report on the Situation of Christians in Iraq. Beirut: Adyan.
- Hughes, E. E. (2017, February). When the Nation is Under Threat: The Assyrian and Chaldean-American Diaspora and the complicated Politics of Refugee Resettlement. St. Antony's International Review, 44-65.
- Index Mundi. (2022). Iraq Religions. Retrieved from IndexMundi.com: https://www.indexmundi.com/iraq/religions.html
- Index Mundi. (2022). Jordan Religions. Retrieved from Indexmundi.com: https://www.indexmundi.com/jordan/religions.html
- Jaulin, T. (2009). Démographie et politique au Liban sous le Mandat. Histoire et Mésure, 29(1), 189-210.
- Minority Rights Group International. (2022). Palestine. Retrieved from MinorityRights.org: https://minorityrights.org/country/palestine/
- Moulasha, K., & Rama Rao, G. (1999). Religion-Specific Differentials in Fertility and Family Planning. Economic and Political Weekly, 34(42-43), 3047-3051.

- Pew Research Center. (2015). The Future Of World Religions: Population Growth Projections, 2010-2050. Washington: Pew Research Center. Retrieved from https://www.pewresearch.org/religion/2015/04/02/middle-east-north-africa/
- Seurat, M. (1980). La Syrie d'aujourd'hui. Aix-En-Provence: Institut de recherches et d'études sur les mondes arabes et musulmans. Récupéré sur https://books.openedition.org/iremam/731#ftn12
- The Economist. (2016, January 2). And then there were none. Retrieved from Economist.com: https://www.economist.com/middle-east-and-africa/2016/01/02/and-then-there-were-none
- UNHCR. (2019, 1 24). Refugee Situation. Retrieved from Operational Portal of the Syria Crisis Response: https://data2.unhcr.org/en/situations/syria
- US Department of State. (2019). 2019 Report on International Religious Freedom: Lebanon. Retrieved from State.gov: https://www.state.gov/reports/2019-report-on-international-religious-freedom/lebanon/
- US Department of State. (2020). 2020 Report on International Religious Freedom: Syria. Retrieved from State.gov: https://www.state.gov/reports/2020-report-on-international-religious-freedom/syria/
- Weulersse, J. (1934). Problèmes D'Irak. Annales De Géographie, 43(241), 49-75.